



انطلقت الثورات العربية بسبب السياسات الاقتصادية الليبرالية؛ فهذا الجديد الذي أوجَدَ أزمات اجتماعية كبيرة، وأجبر الناس على الثورات، وحتى في غياب أحزابٍ فاعلة، أو أية أشكال تنظيمية توحّدُ البشر. القمع قديم، لكنه أخضَعَ البشر وأذلهُمْ ولم يُتَوَرِّهم. أمّا الأزمة الاقتصادية فهي المسبب الفعلي. القمع، في أتون الثورات وقبله، يعد سبباً أيضاً للثورات، ولكن بالدرجة الثانية.

الآن، هل انتهت الأزمة حتى تنتهي الثورات؟ ما حدث للربيع العربي من إخفاقات (وثورة مضادة)، ولأسباب متعددة، ومنها الأنظمة والتدخلات الخارجية والحروب والإسلام السياسي والمعارضات الفاقدة البرامج الاجتماعية الشعبية، أقول كلها أسباب منعت تطور الثورات وإسقاط الأنظمة بشكل كامل. ولكن ما لا ينبغي تأكيده، من دون اشتراطات، أن الأنظمة نجحت والثورات فشلت؛ فأولاًً هناك أنظمة سقطت، كالتونسي والمصري والليبي واليمني، وهناك أنظمة دخلت في حروبٍ كبيرة، كسورية وليبيا واليمن، وهناك أنظمة استعادت الديكتاتورية كمصر. وفي تونس، هناك نظام سياسي لم يستقر شكله بعد، على الرغم من اعتماده الديمقراطية بشكل شبه نهائي.

هذه التغيرات مهمة، وحدثت بسبب الثورات، لكن الاستقرار الجديد (ديكتاتورية، حروب، احتلالات، ديموقратية متدنية) لا تعني، بأي حالٍ، أن الربيع العربي انتهى إلى غير رجعة؛ فبعد موجة التراجع للثورات، انتفض كل من العراق والمغرب والأردن. إذًا، الثورات والانتفاضات المتكررة قابلة للتجدد. الهزائم التي مُنيت بها الثورات لم تترك الأنظمة قوية أبداً؛ فالنظام السوري أصبح أداة للاحتلالات، والمصري والتونسي مرهونان للبنوك الدولية، وبالكاد اليمن وليبيا يمنعان التقسيم. السؤال الآن: هل يصح القول، بعد هذا التوضيح، إن الدينامية الثورية قُتلت إلى أجل غير مسمى، أو إن الثورات لم تترك "تراثاً" وكذلك لا يصح القول "أين هو الربيع العربي". وما قلته أعلاه يوضح خطأ القول "سحابة الخطر المسممة الربيع العربي زالت،

والشعوب العربية، دخلت في طور السكون من الشرق إلى الغرب". كما كتب غازي دحمان في مقالته "افتتاح معبر نصيـب وإغلاق بـاب الـربيع الـعربي" في "الـعربي الـجـديـد" (19/10/2018). ويـتـكـرـرـ هـذـاـ الرـأـيـ فيـ بـعـضـ مـقـالـاتـ الرـأـيـ الـعـرـبـيـةـ. المشـكـلةـ بـمـنـطـقـ الصـدـيقـ غـازـيـ دـحـمـانـ هيـ نـفـسـهـاـ لـدىـ الـمعـارـضـةـ السـيـاسـيـةـ؛ـ فـالـثـورـاتـ لـدـيهـمـ حـدـثـتـ لـأـسـبـابـ سـيـاسـيـةـ،ـ وـلـيـسـ لـأـسـبـابـ اـقـتصـادـيـةـ اـجـتمـاعـيـةـ وـسـيـاسـيـةـ،ـ فـهـيـ بـسـبـبـ "ـعـقـودـ سـبـعةـ تـحـتـ حـكـمـ الأـسـدـ المـافـيوـيـ".ـ وـيـضـيفـ "ـلـاـ نـتـيـجـةـ الغـلـاءـ فـيـ ذـلـكـ الـعـامـ 2010ـ"،ـ بـلـ "ـنـتـيـجـةـ تـراـكـمـ لـلـغـضـبـ وـالـاحـباطـ وـالـأـلـمـ وـالـأـمـلـ".ـ هـذـاـ مـنـطـقـ الـمـهـزـومـينـ الـذـينـ فـوـجـئـواـ بـالـثـورـاتـ 2010ـ؛ـ أـمـاـ الـشـعـبـ فـكـانـ وـاقـعاـ تـحـتـ أـنـظـمـةـ مـانـعـةـ أـيـ شـكـلـ مـنـ الـحـرـياتـ،ـ وـبـالـتـالـيـ اـنـسـاقـ مـعـ رـؤـىـ الـمـعـارـضـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـرـيدـ الـحـرـيةـ السـيـاسـيـةـ وـالـدـيمـوـقـراـطـيـةـ،ـ وـقـدـ حـلـمـتـ بـالـسـلـطـةـ،ـ وـوـصـلـتـ إـلـيـهـاـ (ـمـصـرـ وـتـونـسـ)،ـ لـكـنـ مشـكـلـتـهاـ أـنـهـاـ لـمـ تـقـرـأـ الـوـاقـعـ،ـ بـلـ اـسـتـفـادـتـ مـنـ حـدـةـ تـفـجـرـهـ وـسـرـعـةـ توـسـعـ الـثـورـاتـ.ـ وـبـالـتـالـيـ،ـ وـبـدـلـاـ مـنـ رـؤـيـةـ أـسـبـابـ الـثـورـاتـ،ـ وـالـنـظـرـ إـلـىـ حـيـاةـ النـاسـ مـنـ فـقـرـ وـبـطـالـةـ وـتـعـلـيمـ سـيـئـ وـتـدـهـورـ لـلـزـرـاعـةـ وـالـصـنـاعـةـ وـتـعـمـيمـ سـيـاسـاتـ لـبـيرـالـيـةـ لـصـالـحـ "ـمـافـيـاتـ"ـ مـالـيـةـ مـحـدـدـةـ،ـ سـعـتـ خـلـفـ بـرـامـجـهاـ الـقـدـيـمةـ،ـ وـهـيـ تـرـفـعـهـاـ قـبـلـ الـثـورـاتـ،ـ باـسـتـثـنـاءـ إـسـقـاطـ الـأـنـظـمـةـ.ـ ظـهـرـتـ الـأـخـيـرـةـ وـتـعـاـظـمـتـ،ـ بـسـبـبـ الـثـورـاتـ الـشـعـبـيـةـ تـحدـيدـاـ.ـ

انـطـفـاءـ الـثـورـةـ فـيـ تـونـسـ وـمـصـرـ وـسـوـرـيـةـ وـلـيـبـيـاـ وـالـيـمـنـ لـمـ يـمـنـعـ تـجـدـدـهاـ فـيـ الـمـغـرـبـ وـالـأـرـدـنـ وـالـعـرـاقـ.ـ إـذـاـ لـاـ يـمـكـنـ القـوـلـ إـنـ دـيـنـامـيـتـهاـ الـثـورـيـةـ اـنـتـهـتـ.ـ إـطـالـةـ أـمـدـ الـحـرـبـ فـيـ سـوـرـيـةـ وـالـيـمـنـ وـلـيـبـيـاـ كـانـتـ بـغـرـضـ تـعـلـيمـ الشـعـوبـ الـدـرـوـسـ الـدـمـوـيـةـ بـأـلـاـ يـقـومـواـ بـالـثـورـاتـ،ـ وـرـبـماـ يـتأـخـرـ تـفـجـرـهاـ مـجـدـداـ،ـ وـرـبـماـ تـخـافـ الشـعـوبـ بـدـرـجـةـ مـاـ.ـ وـلـكـنـ مـاـذاـ سـتـفـعـلـ الشـعـوبـ بـأـزـمـتهاـ؟ـ هـنـاـ الـمـسـأـلـةـ الـدـائـمـةـ بـدـيـمـوـمـةـ الـأـنـظـمـةـ،ـ وـهـيـ الـقـضـيـةـ الـتـيـ يـجـبـ مـنـاقـشـتـهاـ،ـ وـكـذـلـكـ كـيـفـ سـتـجـدـدـ الـثـورـاتـ؟ـ

مـهـمـةـ الـثـقـافـةـ الـعـقـلـانـيـةـ الـثـورـيـةـ درـاسـةـ الـوـاقـعـ،ـ وـمـاـ تـمـوـضـعـتـ عـلـيـهـ أـحـوـالـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ.ـ وـيـقـعـ عـلـىـ الـدـرـاسـةـ هـذـهـ قـرـاءـةـ الـوـضـعـ الـاـقـتصـاديـ وـمـعـدـلـاتـ الـفـقـرـ.ـ وـيـؤـكـدـ تـرـاجـعـ أـلـاعـبـ أـنـظـمـةـ كـالـتـونـيـ وـالـمـصـريـ،ـ وـتـكـشـفـهـاـ كـأـنـظـمـةـ تـعـيـدـ إـنـتـاجـ الـقـمـعـ وـالـنـهـبـ وـالـفـسـادـ بـحـجـةـ الـإـرـهـابـ وـالـأـسـلـمـةـ،ـ أـنـ الـثـورـاتـ سـتـجـدـدـ.

الـتـوـحـشـ الـلـيـبـرـالـيـ الـعـالـمـيـ،ـ وـالـذـيـ بـدـأـ بـمـصـطـلـحـاتـ الـنـظـامـ الـعـالـمـيـ الـجـديـدـ فـيـ تـسـعـيـنـيـاتـ الـقـرنـ الـمـنـصـرـ وـالـعـولـمـةـ وـالـخـصـصـةـ وـالـبـرـلـةـ،ـ باـعـتـبارـهـ بـدـائلـ عنـ الـأـنـظـمـةـ الـاشـتـراكـيـةـ،ـ وـدـوـلـ "ـالـشـرـاكـةـ بـيـنـ الـعـمـالـ وـرـأـسـ الـمـالـ فـيـ أـورـوـبـاـ"ـ وـصـلـ إـلـىـ نـهـاـيـةـهـ،ـ مـعـ تـفـجـرـ الـأـزـمـاتـ الـاـقـتصـاديـةـ فـيـ عـامـ 2008ـ،ـ وـالـتـيـ لـمـ تـتـوقـفـ أـبـدـاـ،ـ وـأـخـذـتـ أـشـكـالـاـ عـدـدـةـ،ـ حـتـىـ تـفـجـرـ عـرـبـيـاـ 2010ـ؛ـ أـقـولـ إـنـ هـذـاـ الشـكـلـ مـنـ التـوـحـشـ يـفـرـضـ الـثـورـاتـ بـشـكـلـ حـتـمـيـ.ـ وـبـالـتـالـيـ ضـمـنـ تـحـلـيلـ كـهـذـاـ،ـ لـيـسـ هـنـاـكـ مـنـ حلـولـ مـمـكـنةـ لـلـأـزـمـاتـ،ـ فـيـ ظـلـ أـنـظـمـةـ الـتـبـعـيـةـ وـالـدـيـكـتاـتـورـيـةـ وـالـحـرـوبـ الـأـهـلـيـةـ وـالـاحـتـلاـلاتـ.

الـتـعـقـيـدـاتـ الـتـيـ شـكـلـتـهاـ الـأـنـظـمـةـ السـابـقـةـ وـالـاحـتـلاـلـاتـ أـمـامـ الشـعـوبـ وـتـورـيـطـهـاـ بـالـطـائـفـيـةـ وـالـإـقـلـيمـيـةـ وـ(ـالـقـومـيـةـ وـالـإـثـنـيـةـ)ـ وـالـقـبـليـةـ،ـ لـاـ تـقـدـمـ حـلـوـلـاـ لـلـمـشـكـلـاتـ،ـ وـرـبـماـ تـسـهـلـ دـفـعـهـاـ فـيـ حـرـوبـ طـوـلـيـةـ الـأـمـدـ؛ـ وـلـكـنـ ذـلـكـ لـاـ يـعـنـيـ بـأـيـ حالـ بـأـيـ تـحـلـيلـ مـمـكـنـ أنـ يـسـتـقـرـ،ـ وـالـتـنـاقـصـاتـ يـمـكـنـ أـنـ تـجـمـدـ،ـ فـعـمـ غـيـابـ الـعـلـمـ وـالـجـوـعـ وـاـسـتـمـرـارـ الـحـرـوبـ وـتـدـهـورـ كـلـ الـمـرـاقـقـ،ـ كـالـصـحـةـ وـالـصـرـفـ الـصـحـيـ وـالـتـعـلـيمـ وـالـبـنـيـةـ الـتـحتـيـةـ،ـ لـيـسـ هـنـاـكـ إـلـاـ التـفـجـرـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ،ـ وـالـثـورـاتـ وـالـمـشـارـيعـ الـوطـنـيـةـ.

بـرـزـ إـلـاسـلـامـ السـيـاسـيـ إـشـكـالـيـةـ كـبـرىـ مـعـ تـفـجـرـ الـثـورـاتـ،ـ فـهـوـ يـبـيـعـ الـأـوهـامـ لـلـنـاسـ بـمـشـرـوعـ دـيـنـيـ،ـ وـلـأـحـدـ يـعـرـفـ مـاهـيـتـهـ خـارـجـ الـكـلـامـ عـنـ (ـإـلـاسـلـامـ هـوـ الـحلـ)،ـ أـوـ هـوـ دـنـيـاـ وـدـيـنـ،ـ بـيـنـماـ هـنـاـكـ أـطـرـوـحـاتـ مـنـ نـقـادـ لـهـ،ـ وـتـتـكـلـمـ عـنـ مـاـ بـعـدـ إـلـاسـلـامـ السـيـاسـيـ،ـ أـيـ دـمـقـرـطـةـ،ـ وـاعـتـمـادـهـ الـمـوـاـطـنـةـ،ـ وـتـخـلـيـهـ عـنـ الدـيـنـ فـيـ السـيـاسـةـ وـاـقـتـصـارـهـ عـلـىـ الـأـخـلـاقـ وـالـدـعـوـةـ الـدـيـنـيـةـ.ـ تـجـرـيـةـ حـرـكـةـ الـنـهـضـةـ فـيـ تـونـسـ مـهـمـةـ،ـ وـكـذـلـكـ تـجـرـيـةـ تـرـكـياـ،ـ لـكـنـاـ استـثـنـاءـاتـ.ـ الـفـكـرـةـ الـأـخـيـرـةـ يـتـدـاـولـهـاـ نـقـاشـ عـرـبـيـ وـإـسـلـامـيـ وـاسـعـ،ـ وـيـؤـكـدـ ضـرـورـةـ أـنـ يـنـحـصـرـ الـدـيـنـ بـمـجـالـيـ الـدـعـوـةـ وـالـأـخـلـاقـ.ـ وـبـالـتـالـيـ،ـ وـمـعـ تـفـجـرـ الـثـورـاتـ مـجـدـداـ،ـ يـجـبـ الـعـلـمـ مـنـ أـجـلـ مـشـارـيعـ وـطـنـيـةـ،ـ رـافـضـةـ الـطـائـفـيـةـ وـالـقـبـليـةـ وـالـمـنـاطـقـيـةـ،ـ وـتـرـاعـيـ التـنـوـعـ الـقـومـيـ وـالـإـثـنـيـ.ـ أـقـولـ هـذـهـ قـضـائـاـ الـثـورـاتـ،ـ فـمـاـ هوـ الـمـشـرـوعـ الـاـقـتصـاديـ الـقـادـرـ عـلـىـ تـأـمـينـ الـعـلـمـ،ـ وـمـاـ هوـ شـكـلـ الـنـظـامـ السـيـاسـيـ الـمـانـعـ عـودـةـ الـدـيـكـتاـتـورـيـةـ وـإـجـبارـ إـلـاسـلـامـ السـيـاسـيـ عـلـىـ الـدـمـقـرـطـةـ،ـ وـكـيـفـ سـتـقـمـ مـواجهـةـ الـتـبـعـيـةـ وـالـاحـتـلاـلاتـ (ـعـرـاقـ،ـ سـوـرـيـةـ)ـ مـثـلـاـ.

لم تنتهِ الأحلام "بالحرية والعدالة"، ويجب أن تنتهي مشاريع المعارضات في الديموقراطية، فهناك حاجات متعددة للشعوب، ويجب أن تُطرح على بساط البحث. ومن دون تلك الحاجات "المطالب" المتعددة، لن تتمكن الثورات من الانتصار، وربما على الثورات أن تثور ضد الأنظمة والمعارضات معاً.

المعابر التي فتحها النظام السوري، لن تفيده بشيء يذكر، والنظام الإقليمي، وبدءاً بالأردن ولبنان، لم يتجاوز أزماته، وبالتالي صحيح أن هناك محاولة لتأهيل النظام السوري، ولكن عن أي نظام سوري نتكلم، وروسيا وأميركا وتركيا وإيران وإسرائيل ينحاصرون سورية، وهو ما سينعكس في نظامها السياسي مستقبلاً؟

المصادر:

العربي الجديد